الفصل السابع

الأخْـــلاَق

إن البحث فى الأخلاق، إنما هو البحث عن سعادة الإنسان التى يسعى إليها بسلوكه..

غاية الأخلاق ـ إذن ـ إنما هى البحث عن السعادة :

البحث عنها من حيث ماهيَّتها وتحديدها.

فإذا ما حددت السعادة، اتجه الباحث إلى تحديد أمرين:

أحدهما: الوسيلة التى تؤدى إليها.. الوسيلة الملائمة التى تصل بالإنسان خطوة خطوة إلى السعادة.

والثانى: هو التعريف بما يتنافى مع السعادة، من أجل أن يتحاشاه الإنسان.

والكاتبون عن الأخلاق، فى شرقنا العربى وفى محيطنا الإسلامى، ينهجون ـ فى ذلك ـ النهج الأوربى، فيبدءون بالكتابة عن مذهب **سقراط** فى السعادة، محددين لها عنده، وشارحين الطريق الذى يراه فى الوصول إليها، والطريق الذى يراه فيما يتنافى معها، ثم يشرحون مذهب **أفلاطون**، ويتسلسلون مع الفلاسفة العقليين إلى أن يصلوا إلى الإسلام، فيترك بعضهم الحديث عنه ويتجاوزه إلى النهضة الحديثة فى أوربا.

وبعضهم يتحدث عن الأخلاق فى الإسلام فلا يتجه إلى الكتاب والسُّنة، وإنما يتجه إلى بعض الفلاسفة العقليين فى الجو الإسلامى

الذين ساروا على النهج اليونانى، فيتحدث عن مذاهبهم العقلية فى بحثهم عن السعادة.

وهؤلاء الفلاسفة المسلمون، الذين نهجوا النهج اليونانى، لا يمثلون الإسلام، وإنما يمثلون عقولهم البشرية.

والفلاسفة العقليون - قديمًا وحديثًا - إنما يمثلون - دائماً - عقولهم الفردية البشرية.. ومن أجل ذلك اختلفوا وتعارضوا وتضاربوا، ولم يصلوا إلى اتفاق فيما يتعلق بتحديد السعادة، ولا فيما يتعلق بوسائل الوصول إليها، ولا فيما يتعلق بالوسائل التى تتنافى معها.. ونتج عن ذلك مذاهب فى الأخلاق بعدد من نبغ من الفلاسفة.

وتكاد لا تجد من يتجه إلى الجو الإسلامى البحت: جو الكتاب الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وسلوك رسول الله ﷺ فى ذلك.

وقبل أن نصل إلى شىء من البيان عن رأى الفضيل فى الأخلاق، نحب، بتوفيق الله، أن نتحدث - فى إيجاز ويسر - عن الجو الإسلامى، فيما يتعلق بالسعادة.

إن من رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه، أن يرسم لهم - سبيل السعادة فى دنياهم وفى أخراهم.. وهو طريق لا استحالة فيه، ولا مشقة حقيقية.. وقد جرَّبه الكثيرون ففازوا بالسعادتين:

لقد استراحوا فى هذه الحياة الدنيا.. لقد غمرهم الرضا وأحاط بهم الاطمئنان ولَفَّتهم أرْدِيَةُ السعادة.

ولقد ضمن الله لهم حياة هنيئة فى الآخرة.. يظلهم بظله يوم

لا ظل إلا ظله، ويكفل لهم عدم الخزى حين يغمر الخزى كثيراً من الخلائق، ويدخلهم الجنة برحمته، ويريهم وجهه الكريم تفضُّلاً منه سبحانه.

هذه السعادة فى الدنيا والآخرة وعد الله بتحقيقها لكل من توافر فيه شرطان:

الأول: الإيمان.

الثانى: العمل الصالح.

يقول سبحانه:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١).

لقد وعد الله بتحقيق الحياة الطيبة فى هذه الآية الكريمة لكل فرد تحقق فيه الشرطان.. ونَصَّ الله سبحانه فيها على الأنثى.. وسَوَّى بين الذكر والأنثى.. فى ذلك دعوة صريحة أو ضمنية للنساء إلى القيام بالعمل الصالح، والتحلِّى بمكارم الأخلاق، مثلهن فى ذلك مثل الرجال سواء بسواء، وذلك حتى تَعُمَّ السعادة جميع أفراد الأسرة.

وذكر الله سبحانه ثمرة تحقيق هذين الشرطين فى صورة من التأكيد المؤكّد، وهى: الحياة الطيبة فى هذه الدنيا.. والحياة الطيبة إنما هى السعادة.

---

(١) سورة النحل: ٩٧.

ثم بيَّن سبحانه ـ أيضاً ـ فى صورة من التأكيد المؤكّد، أنه سيجزيهم فى الآخرة، وأن جزاءهم سوف لا يكون على مستوى متوسط أعمالهم، وإنما سيكون بأحسن ما كانوا يعملون.

هذه السعادة تتحقق للفرد باعتباره فرداً؛ إذا حقق ما اشترطه الله سبحانه. وتتحقق للأسرة باعتبارها أسرة؛ إذا تكاتف أفرادها متعاونين متضامنين على توفير الشرطين.. يرى كل من أفرادها أنه مسئول عن نفسه وعن الآخرين، فيتناصحون من أجل سعادتهم.

ألم تر إلى سيدنا إسماعيل ؟.. لقد كان فى نفسه صادقَ الوعد، أى أنه صَدَقَ مع الله فى عهد الإيمان والعمل الصالح.

ولقد كان ـ بالنسبة لأسرته ـ يأمر أهله بالصلاة والزكاة.. ومن أجل ذلك: كان عند ربه مَرْضِيّاً.

وبعد.. فإن هذا قانونٌ إلهىٌّ عامٌّ: ليس خاصّاً بسيدنا إسماعيل، ولا بفرد معين، وإنما هو شامل لكل من انضوى تحت لواء الإيمان والعمل الصالح.

وقد بيَّن الله سبحانه، عمومه فى آيات كثيرة من القرآن الكريم، وبيَّن سبحانه أنه كما يشمل الفرد، وكما يشمل الأسرة، فإنه يشمل ـ أيضاً ـ المجتمع.

فالمجتمع الذى يحقق الشرطين يصل إلى السعادة.

***

وسواء أكُنَّا بصدد الإيمان، أو بصدد العمل الصالح، فإنه لابد من الإخلاص.. وللإخلاص فى الجو الإسلامى مكانته الكبرى..

فعن أنس بن مالك ـ فيما رواه الحاكم وصحَّحه ـ أن رسول الله ﷺ قال:

« مَنْ فَارَقَ الدُّنيا على الإخْلاَص للَّه وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأقَامَ الصَّلاةَ، وآتَى الزَّكَاةَ، فَارَقَهَا واللَّهُ عَنْهُ رَاضٍ ».

والواقع: أن الإخلاص فى العمل، وفى السلوك، وفى الحياة ـ على وجه العموم ـ أصل من أصول الدين الإسلامى، لا يستقيم الدين إلا به.. حتى لقد سُئل رسول الله ﷺ عن معنى الإيمان، فقال ـ فيما رواه البيهقى ـ:

« الإيمانُ هُوَ الإخْلاَصُ ».

والإخلاص المقصود: هو الإخلاص لله.. أى أن يكون الله وحده هو المقصود بالعمل.

ومثل ذلك: أن العامل ـ مثلاً ـ يتقن عمله، ولو لم يكن هناك مِن رؤسائه مَنْ يحاسبه على عدم إتقانه.. والتاجر يَصْدُقُ ولو لم يكن من مواد القانون ما يعاقبه على عدم صدقه.. والمصلِّى يقيم الصلاة ولو لم يكن هناك مَنْ ينظر إليه مُصَلِّيًا ـ وهكذا يراعى كلُّ إنسانٍ اللهَ وحده فى عمله.. فيصبح العمل ـ حتى ما كان منه مغرقاً فى مظهره الدنيوى ـ عبادة يُثاب عليها الإنسان.

روى الإمام مسلم رضي الله عنه عن أبى ذر رضي الله عنه أن ناساً قالوا:

«يا رسول الله.. ذَهَبَ أهْلُ الدّثورِ بالأُجورِ، يُصَلُّون كَمَا نصلّى.. ويَصومونَ كما نصومُ.. ويتصدَّقون بفُضولِ أموالهم »..

قال: «أَوَ لَيْسَ قَدْ جعلَ اللهُ لَكُمْ ما تَصَّدَّقونَ به ؟.. إن بكلِّ تسبيحة صدقةً، وكلُّ تكبيرة صَدَقة، وكلُّ تحميدة صَدَقة، وكلُّ تهليلة صَدَقَة.. وأمرٌ بالمعروف صَدَقةٌ، ونَهْيٌ عن منكرٍ صَدَقَةٌ، وفى بُضْعِ أحَدِكُمْ صَدَقَةٌ ».

قالوا: يا رسول الله !.. أيأتى أحدنا شهوته ، ويكون له فيها أجر ؟ ..

قال: « أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فى حَرَامٍ.. أكَانَ عَليه فيها وِزْرٌ ؟.. فَكَذَلِكَ إذَا وَضَعَهَا فِى الحَلالِ كَانَ لَهُ أجْرٌ ».

والأساس الذى تقوم عليه الأعمال من حيث كونها عبادة ، ومن حيث الثواب عليها، هو النية.. يقول ﷺ - فيما رواه البخارى -:

« إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نَوَى..فمَنْ كانتْ هِجْرَتُهُ إلى الله ورسوله، فهِجْرتُه إلى الله ورسوله.. ومَنْ كانتْ هِجْرَتُهُ إلى دنيا يُصيبُها أو امرأةٍ يَنْكِحُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه ».

إن هجرة الإنسان بعمله إلى الله ـ أى: إرادته بعمله وَجْهَ الله ـ يجعل من عمله عبادة، يُؤْجَر عليها ويثاب.. أما من كانت هجرته بعمله ـ أى: إرادته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته ـ أى: عمله ـ إنما هو عمل دنيوى لا أجر عليه ولا ثواب.. حتى ولو كان العمل يتفق فى مظهره مع الأعمال الصالحة.

ولقد هاجم الإسلام ـ فى عنف عنيف ـ كل مظهر لا يراد به وجه الله.. وكل عمل مصدره الرياء والزُّلْفَى وحب الشهرة، وطلب إرضاء البشر دون مراعاة الله سبحانه.

روى البزار والبيهقى، عن أبى هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه، أن الله تبارك وتعالى يقول:

« أنا خَيرُ شَريك.. فمَنْ أشركَ معى شريكًا فهو لشَريكى.. يا أيُّها الناسُ، أخْلصوا أعمالَكم .. فإنَّ اللهَ تعالى لا يقبلُ منَ الأعمالِ إلا ما خَلَصَ له.. ولا تقولوا: هذه لله وللرَّحم.. فإنها للرَّحِم، وليس لله فيها شيءٌ..ولا تقولوا:هذه لله ولوُجُوهكُمْ.. فإنها لوجوهكمْ، وليس لله منها شيءٌ »..

وأحاديث رسول الله ﷺ فى هذا المعنى كثيرة.. والقرآن الكريم مصرِّح فى كثير من آياته بأن العمل الذى يثاب عليه الإنسان، إنما هو العمل الذى أخلص صاحبه فيه.. أى أن يكون العبد ـ كما يقول أبو سعيد الخراز ـ لا يرجو إلا الله،ولا يخاف إلا الله ، ولا يتزين إلا لله، ولا يأخذه فى الله لومة لائم.

وبعد.. فإن رسول الله ﷺ يقول ـ فيما يرويه الإمام مسلم ـ عن أبى هريرة رضي الله عنه:

«إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى أجْسَامِكم،ولا إلى صُوَرِكُمْ.. ولكنْ ينظرُ إلى قُلوبِكُم»..

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ حين أراد إرساله إلى اليمن:

«يا رسول الله.. أوْصِنى.

فقال ﷺ:

«أَخْلِصْ دِينكَ يَكْفِكَ العَمَلُ القَلِيلُ».

ولن يتوفر الإخلاص، ما لم يتجه الإنسان إلى الله بالتوبة الخالصة النصوح. والتوبة لها مكانة سامية فى الإسلام.. وهى تستتبع العمل ـ لا محالة ـ إذا كانت صادقة.. إن لها شأنها فى الإسلام..

ولقد مَرَّ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على رجل يذكِّر الناس بالله ويشتد فى الترهيب من عذاب الله وعقابه، ويستفيض حتى ليوشك أن يقنِّط الناس من رحمة الله.. فقال له:

«يا مُذَكِّر: لِمَ تقنِّط الناسَ من رحمة الله؟.. ثم قرأ:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1]..

(١) سورة الزمر: ٥٣.

وهذه الآية الكريمة التى يقول رسول الله ﷺ عنها:

« مَا أُحِبُّ أنَّ لى الدُّنيا ومَا فِيها بهذه الآية ».

هى ابتداء ثمان آيات تحدد جانباً من الصلة بين الله وعباده.. إنها تفتح باب رحمة الله على مصراعيه.

ثم تتلوها آية تحدد الكيفية التى ينال بها الإنسان رحمة الله ومغفرته.. يقول سبحانه:

﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾(١).

وبهذه الآية الكريمة أصبح الأمر واضحاً..

فباب رحمة الله مفتوح للتائبين المخلصين الصادقين فى توبتهم.

إنه مفتوح لهؤلاء الذين تصل بهم توبتهم إلى أن يسلموا له وجوههم، فيصبحوا من عباده المخلصين.

وتحدد الآية الثالثة، كيفية إسلام الوجه لله الذى هو ثمرة التوبة الصادقة، فتقول:

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾(٢)..

فاتِّباع أحسن ما أنزل الله، هو الثمرة التى تثمرها التوبة.

---

(١) سورة الزمر: ٥٤.

(٢) سورة الزمر: ٥٥.

إن التوبة تضع الإنسان فى مرتبة البراءة.. إنها تمحو السيئات فتجعل صحيفة الإنسان بيضاء صافية طاهرة.. وهى مرتبة عظيمة فى موازين الدين.. ولابد ـ بعد ذلك ـ من ملء الصحيفة بالصالحات من الأعمال، وذلك باتباع ما أنزل الله..

ثم يبين الله سبحانه وتعالى فى الآيات الثلاث التى تتلو.. بعض ما عسى أن يتمحَّله[1] فى الآخرة ـ من معاذير ـ بعضُ من لم يتوبوا .. ما عساهم أن يقولوا ؟..

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

إن هذه كلها معاذير لا تُجدى ولا تُفيد.. فالله سبحانه وتعالى يرد عليها جميعاً فى قوة قائلاً:

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[3] ..

ثم يبين الله سبحانه العاقبة التى تنتظر المكذِّبين والمنافقين

---

(١) المماحَلة: المماكرة والمكايدة. وتمحَّل: احتال. والمراد به هنا: التماس أعذار كاذبة.

(٢) سورة الزمر : ٥٦ ـ ٥٨ .

(٣) سورة الزمر : ٥٩ .

والكافرين وكل من انحرف عن صراط الله المستقيم، فيقول سبحانه:

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾(١).

وإذا كان هذا فى شأن المنحرفين ، فإن الله سبحانه وتعالى يبين مصير الذين استجابوا لدعوته وندائه:

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

أما بعد.. فإن الخطوة الأولى فى الطريق إلى الله، إنما هى التوبة الخالصة النصوح، والتوبة خطوة تفصل دائماً بين عهدين.. وهى نور يستقبل به الإنسان حياته الجديدة.

ومن أجل ذلك يقول الشرع: إن التوبة تَجُبُّ ما قبلها.. أى: تمحوه وتزيله.

إنها ابتداء لحياة الطهر والصفاء، وحياة الاستجابة لله.. وإذا استجاب الإنسان لله ورسوله ، بَاعَدَ الله بينه وبين الخوف والحزن، ومنحه الرضا والسعادة فى الدنيا والآخرة.

***

(١) سورة الزمر : ٦٠ .

(٢) سورة الزمر : ٦١ .

وما من شك فى أن طريق السعادة هو طريق الفلاح . .

إنهما يلتقيان أساساً وغاية، ويكونان وحدة متحدة. . والله تعالى برسمه طريق الفلاح يرسم فى الوقت نفسه طريق السعادة. . وبرسمه طريق السعادة يرسم طريق الفلاح.

ولقد رسم الله سبحانه فى آياته الكريمة طريق الفلاح، قال تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾**(١).

والركوع والسجود علامتا الخضوع لله سبحانه، والتواضع له. . إنهما العلامتان الظاهرتان. . ويجب أن تصحبهما علامة باطنية هى خضوع القلب، أو سجود القلب. . وسجود القلب ظاهرة يجرى وراء تحقيقها الصالحون كفاية سامية فى أعراف المتقين.

إن التعبير الجارى الذى يقول: « **مَنْ تَواضَعَ لله رَفَعَهُ** ». . إنما يعنى ـ على الخصوص ـ هذا الذى تواضع لله سبحانه بقلبه، وهو يجارى قوله ﷺ ـ فيما رواه الإمام مسلم ـ عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ . . قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« **عَليكَ بكثرة السُّجود، فإنَّكَ لنْ تسجدَ لله سجدةً إلا رَفَعَكَ اللهُ بِها درجةً، وحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئةً** ».

وذلك كله متابعة لقول الله تعالى:

---

(١) سورة الحج : ٧٧.

﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾[1].

أى: تواضعْ لله سبحانه، واخْشَعْ له، واخْضَعْ، فإن ذلك وسيلة القرب منه سبحانه، والقرب من الله هو منتهى الرفعة للإنسان.

ويقول رسول الله ﷺ:

« أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ».

وينصح رسول الله ﷺ، أن يدعو الإنسان ربه، وهو فى هذه الدرجة من القرب، قائلاً:

« فَادْعُوا فِى سُجُودِكُمْ، فقَمِن[2] أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ ».

والسجود الذى يريده الله ورسوله، هو ـ على الخصوص ـ المعنى العميق فى النفس الذى يتمثل فيه الشعور القلبى الروحى بجلال الله وعظمته، والذى تُصوِّره هذه الشارة المعروفة من وضع الجبهة على الأرض: تمثل الخضوع لجلال الله وعظمته، والانقياد المطلق لحكمته الرحيمة، وعظمته الحكيمة، ووُدِّه القريب، وتقرُّبه ممن تقرَّب إليه.

ومن الأحاديث ذات المغزى العميق فى هذا: ما رواه الإمام مسلم ـ بسنده ـ عن أبى فراس الأسلمى ـ خادم رسول الله ﷺ، ومن أهل الصُّفَّة رضي الله عنه ـ قال:

---

(١) سورة العلق: ١٩.

(٢) القَمِن، والقَمَن، والقمين: الجدير بالشىء.

« كنتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ، فآتيه بوضوئه وحاجته، فقال: « **سَلْنِي** ». . فقلتُ: أسألك مرافقتك فى الجنة.

قال: « **أو غيرَ ذلك ؟** ».

قلت : هو ذاك.

قال: « **أعنِّى على نَفْسِكَ بكثرة السُّجُود** ».

السجود ـ إذن ـ تعبير عن التطامن لله سبحانه، وعن الخشية والخضوع ـ وهو من أجل ذلك سبيل إلى الجنة. . فما دام الإنسان يخشى الله، فإنه يقوم بالواجبات والفروض، وينتهى عما نهى الله عنه، وذلك هو التقوى. . وذلك هو معنى العبودية التى أمر الله سبحانه وتعالى بها كثيرًا فى القرآن، وأمر بها فى الآية التى نحن بصددها، فقال :

﴿ **وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ** ﴾[1].

وإذا ما خشى الإنسان ربه، فإنه ـ لا محالة ـ فاعل للخير، وذلك أن التزام أوامر الله، واجتناب نواهيه، هو الخير كل الخير.

فإذا ما حقق الإنسان السجود لله بمعناه الصحيح، كان قد حقق سلوك طريق الفلاح فى الدنيا، وسلوك طريق الفلاح فيما يتعلق بالآخرة.

أما فى الدنيا: فإن الله سبحانه قد تكفَّل بمن سجد له متمثلاً العبودية. . يقول سبحانه: ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾[2]؟. .

---

(١) سورة الحج : ٧٧.

(٢) سورة الزمر : ٣٦.

ويقول:

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[1]..

ويقول تعالى ـ فى عموم وشمول ـ عن الذين آمنوا وكانوا يتقون:

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[2]..

هذه هى السعادة فى الجو الإسلامى، إنها الإيمان والعمل. وطريقها يبدأ بالتوبة الخالصة النصوح، وليس له دون الله منتهى..

يقول تعالى:

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾[3]..

فمن سار فى هذا الطريق انتهى به الأمر إلى السعادة.

ولقد أخذ الفضيل يحث الناس بقوله وسلوكه إلى هذا الطريق.

وفيما يلى كلمات ترشد إلى الروح الإيمانية التى كان يحاول توجيه الناس إليها:

---

(١) سورة الطلاق : ٢، ٣.

(٢) سورة يونس : ٦٢ ـ ٦٤.

(٣) سورة النجم : ٤٢ .

عن محمد بن زنبور قال: سمعت الفضيل يقول:

« رَهْبَةُ العَبْدِ مِنَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ علَى قَدْرِ علْمِه، ورَهْبَتُهُ مِنَ الدُّنيا على قَدْرِ رَغْبَتِه فى الآخِرَة ».

وقال الفضيل لسفيان بن عيينة:

« وَيْلٌ لكَ إنْ لَمْ يَعْفُ عنكَ.. إذَا كُنْتَ تَزْعُمُ أنَّكَ تَعْرِفُهُ، وأنْتَ تَعْمَلُ لغَيْرِه ».

وعن عبد الصمد قال: سمعت الفضيل يقول:

« عَامِلُوا اللَّهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ بالصِّدْق فى السِّرِّ، فإنَّ الرَّفيعَ مَنْ رَفَعَهُ اللَّهُ.. وإذا أحَبَّ اللهُ عبداً أسْكَنَ مَحَبَّتَهُ فى قُلوبِ العِبَاد ».

وعن محمد بن قطن قال: قال الفضيل بن عياض:

« إنَّما يَهابُكَ الخَلْقُ علَى قَدْرِ هَيْبَتِكَ للَّه ».

وعن هناد بن السرى قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« مَا مِنْ ليلة اختلطَ ظَلامُها، وأرخَى الليلُ سِرْبَالَ سِتْرِها،إلا نَادَى الجليلُ جَلَّ جَلالُه:

«مَنْ أعْظَمُ منِّى جُودًا، والخَلائقُ لى عَاصُونَ، وأنَا لَهُمْ مُرَاقبٌ.. أكْلَؤُهُمْ فى مَضَاجِعِهِمْ كَأنَّهُمْ لَمْ يَعْصُونِى، وأتولَّى حِفْظَهم كأنَّهُمْ لَمْ يُذْنِبُوا..

مَنْ بَيْنِى وبَيْنَهُمْ: أَجُودُ بالفَضْلِ علَى العَاصِى ، وأَتَفَضَّلُ علَى المُسِيءِ..

مَنْ ذَا الذى دَعَانى فَلَمْ أَسْمَعْ إليه ؟.. ومَنْ ذا الذى سَألَنى فَلَمْ أُعْطه ؟.. أمْ مَنْ ذَا الذى أناخَ بِبَابِى ونَحَّيْتُهُ ؟.. أنا الفَضْلُ ومنِّى الفَضْلُ.. أنا الجُودُ ومنِّى الجُودُ، أنا الكَرِيمُ ومنِّى الكَرَمُ، ومن كَرَمِى أنْ أغفرَ للعَاصِى بعدَ المعَاصِى، ومنْ كَرَمِى أنْ أُعْطِىَ التَّائبَ كأنَّهُ لَمْ يَعْصنى.. فَأينَ عنِّى تَهرِبُ الخَلائقُ ؟.. وأينَ عَنْ بابِى يَتَنَحَّى العَاصُون ؟ »..

وعن الفيض بن إسحاق قال: سمعت الفضيل يقول:

« ليسَت الدارُ دارَ إقامة، وإنما أُهبط آدمُ إليهَا عقوبةً.. ألا تَرى كيفَ يَزويها عن المؤمنِ، ويمرّرها عليه بالجُوع مَرَّةً، وبالعُرْى مَرَّةً، وبالحاجة مَرَّةً، كما تصنعُ الوالدةُ الشفيقةُ بولدها، تَسقيه مَرَّةً حَضيضاً، ومَرَّةً صَبْراً ، وإنما تريدُ بذلكَ ما هو خيرٌ له ؟ ».

قال: وقال لى الفضيل:

« تريدُ الجنةَ معَ النبيِّينَ والصِّدِّيقينَ، وتريدُ أن تقفَ الموقفَ معَ نوحٍ وإبراهيمَ ومحمدٍ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام.. بأىِّ عملٍ..وأىٍّ

شهـوة تركتَـها لله عـزَّ وجلَّ ؟.. وأيِّ قريبٍ بَاعَـدْتَه فى الله ؟..وأيِّ بعيدٍ قرَّبته فى الله ؟».

قال: وسمعت الفضيل يقول:

« لا يتركُ الشـيطانُ الإنسانَ حتَّى يحتـالَ له بكلِّ وَجْه، فيَسـتخرجَ منْهُ ما يخبرُ بـه منْ عمله.. لعلَّه يكونُ كثيرَ الطَّواف ، فيـقول: ما كانَ أحلَى الطوافَ الليلة ؟!.. أو يكونُ صائماً فيـقول: ما أثقلَ السّحورَ، أو ما أشدَّ العطش ؟!.

فإن استـطعتَ أن لا تكونَ محدِّثًا ولا متكلِّمـاً ولا قارئًا . إن كنتَ بليغًا قـالوا:ما أبلَغه وأحسنَ حَـديثه، وأحسنَ صَوته، فيـعجبكَ ذلكَ فـتَنتفخ.. وإنْ لم تكنْ بليـغـاً ولا حسنَ الصَّـوت قالوا: ليسَ بحَـسنٍ يحدِّث، وليس صـوتُه بحَسن، أَحْـزَنكَ وشقَّ عليكَ، فتكونَ مُـرائياً.. وإذا جَلستَ فتَكلَّمتَ، ولم تُبَالِ مَنْ ذَمَّكَ ومَنْ مَدَحَكَ ؛ فتكلَّمْ.. ».

ودخل عليه قوم، فقال: « ممن ؟ ».

قالوا: من «خُراسان» . .

قال:

« اتَّقوا اللهَ وكُـونوا منْ حيثُ شئـتُم، واعْلَموا أنَّ العبـدَ إذا أحْسَنَ الإحسَانَ كلَّه، وكانتْ له دَجاجةٌ فأساءَ إليهَا لمْ يكنْ مِنَ المُحْسِنين» .

وعن الفيض بن إسحاق، قال: سمعت الفضيل يقول:

« لَمْ تَرَ أقرَّ عَيناً مِمَّنْ خرجَ مِنْ شِدَّةٍ إلى رخَاء، ويُقدِمُ على خيرِ مقدمٍ، وينزلُ على خيرِ منزلٍ، فإذا رأى ما يَرى مِنَ الكرامةِ يقول:

لَوْ عَلِمتُ ما سألتُكَ إلا الموتَ.

ولمْ تَرَ يومَ القيامةِ أقرَّ عَيناً مِمَّنْ خرجَ مِنَ الضِّيقِ والشِّدَّةِ والجوعِ والعطشِ، ثم نزلَ على الجنةِ.. يقول الله:

﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

ولم تَرَ يومئذ أسخنَ عَيناً ممَّنْ خرجَ من الروحِ والسَّعةِ، والرخاءِ والنعمةِ، ثم نزلَ على النارِ.. يقول الله:

﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[2] ».

وعن إبراهيم بن الأشعث، قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« لو أنَّ الدنيا بحَذافيرها عُرضتْ عليَّ حَلالاً لا أحاسَبُ بهَا في الآخرةِ، لكنتُ أَتَقَذَّرُها كما يتقذَّرُ أحدُكم الجِيْفَةَ إذا مَرَّ بها أن تصيبَ ثَوْبَهُ ».

وعن إبراهيم بن الأشعث، قال: سمعت الفضيل يقول:

---

(١) سورة النحل: ٣٢.

(٢) سورة غافر: ٧٦.

« لَنْ ينجوَ عبدٌ حتَّى يُـؤْثِرَ دينَهُ على شَهوته، ولَنْ يَهْلِكَ حتَّى يُؤْثِرَ شَهوتَه على دينه » . .

ويروى الفضيل عن محمد بن سوقة، قال:

« أمران لَوْ لَمْ نُعـذَّبْ إلا بهمَا لكنَّا مستحقِّين بهمَـا لعَذاب الله، أحدُنا يزادُ الشيءَ مِنَ الدنيا فيفرحُ به فَرحاً ما عَلِمَ اللهُ أنه فَرِحَ بشيءٍ زَادَه قَطُّ فى دينه.. وينقصُ الشيء مِنَ الدنيا فيحزنُ عليه حزناً ما عَلِمَ اللهُ أنه حَزِنَ على شيءٍ قَطُّ نَقصَه فى دينه » .

ويروى الفضيل، عن حصين، عن بكر بن عبد الله، قال:

« الرَّجلُ عَبْـدُ بطنـه ، عبدُ شهـوته ، عبـدُ زوجتـه .. لا بقليلٍ يَقْنَعُ ولا مِـنْ كثيرٍ يَشْبَعُ ، يَجْمَـعُ لمنْ لا يَـحْـمَـدُهُ ، ويُـقْـدِمُ علَـى مَـنْ لا يَعذرُه » . .

وعن إبراهيم الطبرى، قال: قال الفضيل:

« مـا تزيَّن الناسُ بشـيءٍ أفضـلَ مِنَ الصِّـدق، واللهُ ـ عـزَّ وجلَّ ـ يسـألُ الصَّادقـينَ عَنْ صِدْقِـهم، مِنْهم عـيسَى بن مـريمَ عليه السَّـلام، كيفَ بالكذَّابينَ المـسَاكينَ، ثم بكَى وقـال: أتدرونَ فى أىِّ يومٍ يسألُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ عـيسَى بن مريمَ عليه السَّـلام ؟.. فى يومٍ يجمعُ اللهُ فيهِ الأوَّلينَ والآخرينَ ، آدمَ فمَنْ دُونَهُ، ثم قال:

« وكَمْ مِنْ قَبيحٍ تَكْشِفُهُ القِيَامةُ غَدًا ».

وعن إسحاق، قال: قال الفضيل:

« طُوبَى لمنِ اسْتَوحشَ مِنَ الناسِ وكَانَ اللهُ أنيسَهُ، وبكَى علَى خَطِيئته ».

وقال الفضيل:

« إنما جُعلتِ العِلَلُ ليُؤدَّبَ بها العُتاةُ، ليسَ كلُّ مَنْ مَرِضَ ماتَ ».

وقال رجل للفضيل: إن فلاناً يغتابنى..

فقال: « قَدْ جَلَبَ الخيرَ جَلْباً ».

وقال عبد الصمد بن يزيد: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« أدركتُ أقوامًا يستحيونَ مِنَ اللهِ ـ فى سَوادِ الليلِ ـ مِنْ طُولِ الهَجْعَةِ، إنما هو علَى الجنْبِ، فإذا تحرَّكَ قالَ لنفسه: ليسَ هذا لكِ.. قُومى خُذِى حَظَّكِ مِنَ الآخرة ».

وقال الفضيل: قيل لإبراهيم: إنك لَتُطِيلُ الفكرة.

فقال: «الفكرةُ مُخُّ العَمَل».

وعن الفضيل قال: قال الحسن:

« الفكرةُ مرآةٌ تُريكَ حَسناتكَ وسَيئاتكَ ».

وقال عبد الصمد: سمعت الفضيل يقول:

« إذا أتاكَ رجلٌ يشكو إليكَ رجلاً فقلْ: يا أخى اعفُ عَنْهُ .. فإنَّ العفوَ أقربُ للتَّقْوَى .. فإنْ قالَ: لا يحتملُ قلبى العفوَ ولكنْ أنتصرُ كما أمرنى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ..قل:

فإنْ كنتَ تُحسن تَنتصرُ مِثلاً بمثْلٍ.. و إلاّ فارجعْ إلى بابِ العَفْوِ فإنه بابٌ أوسعُ ، فإنه مَنْ عفا وأصْلَح فأَجْرُه على الله..

وصَاحِبُ العَفْو يَنامُ الليلَ علَى فِرَاشِه، وصَاحِبُ الانْتِصَارِ يُقلِّبُ الأمورَ ».

وقال عبد الرحمن بن داود، حدثنا الفضيل بن عياض، قال:

« ما حُلِّيتِ الجنَّةُ لأمَّةٍ كما حُلِّيتْ لهذه الأمَّةِ ، ثُمَّ لا تَرى لهَا عَاشِقاً ».

وعن إسحاق بن إبراهيم، قال: قال رجل للفضيل:

كيف أصبحت يا أبا على ؟..

فكان يثقلُ عليه كيف أصبحت وكيف أمسيت ؟

فقال: «فى عافية».

فقال: كيف حالك ؟

فقال: « عَنْ أىِّ حالٍ تَسأل ؟..عَنْ حَالِ الدُّنيا، أم حَالِ الآخرة ؟..

إنْ كنتَ تسألُ عنْ حالِ الدنيا، فإنَّ الدنيا قدْ مَالَتْ بنا وذهبتْ بنا كُلَّ مَذْهَب..

وإنْ كنتَ تسألُ عن حال الآخرة، فكيفَ ترى حالَ مَنْ كثُرتْ ذُنوبُه، وضعُفَ عَمَلُه، وفَنِى عُمْرُه، ولَمْ يَتزوَّدْ لمعَاده، ولم يتأهَّبْ للمَوت، ولم يَخْضَعْ للمَوت، ولم يَتشمَّرْ للمَوت، ولم يَتَزيَّنْ للمَوت، وتزيَّن للدنيا.. هيه.. وقعدَ يحدِّثُ ـ يعنى: نفسَه ـ واجْتَمعوا حَولكَ يكتبونَ عنكَ.. بَخٍ.. فقد تفرَّغتَ للحديث، ثم قال: هاه ـ وتَنفَّسَ طويلاً ـ ويْحَكَ: أنتَ تُحسنُ تحدِّثُ، أو أنتَ أهلٌ أن يُحْمَلَ عنكَ.. اسْتَحِ يا أحمقُ بينَ الحُمْقَان.. ولَوْلاَ قلَّةُ حَيائكَ وسَفَاهةُ وَجْهكَ، مَا جلستَ تحدِّثُ وأنتَ أنتَ ـ أما تعرفُ نفسَكَ؟..أما تَذكُر ما كنتَ، وكيفَ كنتَ ؟..أما لو عرفوكَ ما جَلسوا إليكَ ولا كَتبوا عَنْكَ ؟..ولا سَمعوا منكَ شَيئاً أبداً..فيأخذُ فى مِثْل هذا، ثم ويْحَكَ،أما تَذكُرُ الموتَ ؟.. أما للموت فى قلبك موضوعٌ؟.. أما تَدْرى متَى تُؤخذُ فيُرمَى بكَ فى الآخرة، فتَصير فى القَبْر وضيْقه ووَحْشَته، أما رأيتَ قبراً قَطُّ ؟.. أما رأيتَ حينَ دَفنوه ؟.. أما رأيتَ كيفَ سَلوهُ فى حُفرته وهَالوا عليه التُّرابَ والحجَارة ؟ ».. ثم قال:

« مَا يَنبغى لكَ أنْ تتكلَّمَ بفَمكَ كلمةً ـ يعنى: نفسه ـ تَدْرى مَنْ تَكلَّم بفقْه كلِّه ؟.. عمرُ بن الخطَّاب.. كان يُطعمهم الطيِّبَ، ويأكلُ الغليظَ.. ويكسُوهم اللَّين، ويلبسُ الخشِنَ، وكانَ يُعطيهم حُقوقَهم

ويَزيدهم.. أَعْطى رجلاً عَـطاءَه أربعة آلاف درْهم، وزَاده ألفاً..فـقيل له: ألاَ تَزيدُ ابنكَ كـما زِدتَ هـذا ؟.. قال: إن أبا هذا ثَبَتَ يومَ أحُـدٍ، ولم يثبتْ أبو هذا».

وعن محمد بن يزيد بن خنيس، قال: قال رجل:

مررت ذات يوم بالفضيل بن عياض، فقلت له:

أوصِنى بوصيةٍ ينفعنى الله بها.

قال: «يا عبدَ الله: أخفِ مَكانَكَ، واحْفَظْ لسَانَكَ، واسْتَغْفِرْ لذنبِكَ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ كما أَمَرَكَ».

وقال إبراهيم بن الأشعث: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« تزيَّنتَ للناسِ، وتَـصنَّعتَ لهم، وتهيَّـأتَ، ولم تزلْ تُرائى حـتَّى عَرفـوكَ، فقالوا: هو رجلٌ صالحٌ، فـأكرموكَ، وقَضـوا لكَ الحوائجَ، ووسَّعوا لكَ فى المـجْلِس، وعظَّموك.. خيبةً لكَ، مـا أسْوَأ حالَكَ إنْ كانَ هذا شَأنَكَ ».

وقال الفضيل:

« تَرْكُ العَـملِ مِنْ أجْلِ الناسِ هو الرِّيَاءُ، والعَـملُ مِنْ أجْلِ الناسِ هُو الشِّرْك ».

وقال:

« مَنْ وُقِىَ خَمْساً فقدْ وُقِىَ شَرَّ الدُّنيا والآخرة: العُجْبُ، والرِّياءُ، والكِبْرُ، و الإزْرَاء، والشَّهْوَة ».

وقال:

« لَئِنْ يطلبُ الرجلُ الدُّنيا بأقْبَحِ ما تُطلبُ به، أحْسَنُ مِنْ أنْ يَطلُبَها بِأحْسَنِ ما تُطلَبُ به الآخِرةُ ».

وكان الفضيل ـ رحمه الله ـ يقول:

« سَيِّدُ القَبيلةِ فى آخِرِ الزَّمانِ مُنافِقُها، وهناكَ يُحْذَرُ مِنهم لأنَّهم داءٌ لا دواءَ له ».

وكان الفضيل مَعْنِيّاً بالصداقة والصَّديق، يتحدث عن ذلك فى عدة مناسبات.. ومن كلامه فى ذلك ما يلى:

عن يحيى بن يحيى قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« إذا خَالَطْتَ فخَالِطْ صاحبَ الخُلُقِ الحسَنِ، فإنَّه لا يَدْعُو إلا إلى خَيرٍ، وَصاحِبُه مِنْهُ فى راحة.. ولا تُخالِطْ سَيِّئَ الخُلُقِ، فإنَّه لا يَدْعُو إلا إلى شَرٍّ، وصاحِبُه مِنْهُ فى عَنَاءٍ ».

وكان رضي الله عنه يقول:

« مَنْ طَلَبَ أخاً بلا عَيْبٍ صَارَ بلا أخٍ ».

وكان يقول:

« لا تُؤَاخِ مَنْ إذا غَضِبَ مِنْكَ كَذَبَ عليكَ ».

وكان يقول:

« قد بَطَلَتِ الأخوَّةُ اليومَ.. كان الرجلُ يَحْفَظُ أولادَ أخيهِ مِنْ بَعْدِهِ ويَعُولهم حتَّى يبلغوا رُشْدَهُمْ كأنَّهم أولادُه ».

وكان يقول:

« ليسَ بأخيكَ مَنْ إذا مَنَعْتَهُ شَيئاً طَلَبَهُ غَضِبَ مِنْكَ ».

ومن كلماته:

« مَنْ أظْهَرَ لأخيهِ الوُدَّ والصَّفَاءَ بلسَانه، وأضْمَرَ له البُغْضَ والعَدَاوةَ.. لَعَنَهُ الله، وأَصَمَّهُ وأعْمَى بَصَرَ قَلْبِه ».

وعن عبد الصمد بن يزيد قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« أنا لا أعْتَقِدُ أخَا الرَّجلِ فى الرِّضَا، ولكنْ أعْتَقِدُ أخَاهُ فِى الغَضَبِ» .

وقال عبد الصمد بن يزيد: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« إنما سُمِّى الصَّدِيقُ لتَصَدُّقِه، وإنما سُمِّى الرَّفيقُ لِتَرفُّقِه، ليسَ فى السَّفر وحدَهُ، بلْ فى السَّفَر والحَضَر ».

قلنا: يا أبا علىٍّ فَسِّرْ لنا هذا.

قال: « أمَّا الصَّديقُ فإذَا رأيتَ منه أمْراً تَكْرَهُهُ فَعظْهُ ولا تَدَعْهُ يَتَهَوَّرُ، وأمَّا الرَّفيقُ فإنْ كنتَ أعقلَ منهُ فارْفُقْهُ بعَقْلكَ، وإنْ كنتَ أحْلَمَ منهُ فارْفُقْهُ بحلْمكَ، وإنْ كنتَ أعْلَمَ منهُ فارْفُقْهُ بعِلْمكَ، وإنْ كنتَ أغْنَى منهُ فارْفُقْهُ بمالكَ».

وقال الفضيل :

« المؤمنُ يهمُّه الهَرَبُ بذَنْبه إلى الله ، يصبحُ مَغْمُوماً ويُمسى مَغْمُوماً ».

وقال:

« حَسناتُكَ مِنْ عَدوِّكَ أكثرُ منْها مِنْ صَديقكَ ».

قيل: وكيف ذلك يا أبا على ؟

قال: « إنَّ صَديقَكَ إذا ذُكرتَ بينَ يديه قال:عَافَاهُ الله. وعدوَّكَ إذا ذُكرتَ بينَ يديه يغتابكَ الليلَ والنهارَ.. وإنما يدفعُ المسكينُ حَسناته إليكَ.. فلا تَرْضَ إذا ذُكرَ بينَ يديكَ أن تقولَ: اللهُمَّ أهْلكْهُ ـ لا.. بل ادعُ له: اللهُمَّ أصْلحْهُ، اللهُمَّ راجِعْ به.. ويكونُ اللهُ يعطيكَ أجرَ ما دَعَوتَ به.. فإنَّ مَنْ قالَ لرجُلٍ: اللهُمَّ أهْلكْهُ ، فَقَدْ أعْطَى الشَّيطانَ سُؤالَهُ، لأنَّ الشَّيطانَ ،إنما يدورُ على هَلاكِ الخَلْق ».

وقال الفيض بن إسحاق: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« ليسَ فِى الأرضِ شَىْءٌ أشَدَّ مِنْ تَرْكِ شَهْوَةٍ ».

وكان يقول :

« لِكُلِّ شَىءٍ دِيْبَاجَةٌ، وديباجَةُ القُرَّاءِ تَرْكُ الغِيْبَةِ ».

وكان يكره لقاء الإخوان مخافة التزيُّن منه ومنهم.

وكان يقول:

« إذا اغْتَـابَكَ عَدُوٌّ فهـو أنفعُ لكَ مِنَ الصَّديقِ، فـإنَّه كُلَّمَا اغـتابكَ كانَ لكَ حَسَنَاتُهُ ».

وعن عبد الصمد قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« إذا ظَهَرت الغيبةُ ارْتَفَعَت الأخوَّة فى الدُّنيا، إنَّما مَثَلُكُمْ فى ذلكَ الزَّمـانِ مِثْلُ شىءٍ مَطْـلِىٍّ بالذَّهبِ والفِضَّـةِ، داخِلُه خَـشَبٌ وخارِجُـهُ حَسَنٌ ».

ومن كلماته:

« لِيَكُنْ شُغْلُكَ فى نَفْسِك، لا فى غَيـرِكَ، ومَنْ كَانَ شُغْلُهُ فى غَيرِهِ فَقَدْ مُكِرَ بِه ».

ومنها:

« أهْلُ الفَضْلِ فى الدُّنـيا، هُمْ أهْلُ الفَضْلِ فى الآخِـرة ، مَا لَمْ يَروا فَضْلَهُمْ ».

وكان يقول:

« عالمُ الآخرةِ علْمُهُ مَسْتُور، وعالمُ الدُّنيا علْمُهُ مَنْشُور، فَاتبعُوا عَالمَ الآخرة، واحْذَروا عَالمَ الدُّنيا أنْ تُجَالسُوه، فإنَّه يَفْتنُكُم بغُروره وزَخرفته، ودَعْواه العَملَ مِنْ غيرِ عَملٍ، أو العَملَ مِنْ غيرِ صِدْقٍ ».

وعن محمد بن زنبور قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« أعْلَمُ الناسِ بالله أخوفُهم لَهُ ».

وقال الفضيل:

« تَكَلَّمْتَ فيمَا لا يَعْنيكَ، فشَغَلَكَ عمَّا يَعْنيكَ، ولَوْ شَغَلَكَ ما يَعْنيكَ تَركتَ ما لا يَعنيكَ ».

وعن عبد الصمد قال: سمعت الفضيل يقول:

« يكونُ شُغْلُكَ فى نَفْسكَ، ولا يكونُ شُغلكَ فى غَيرِكَ .. فمَنْ كانَ شُغله فى غيرِه فقدْ مُكِرَ به ».

وقال الفضيل:

« لم يُدْرِكْ ـ عندَنا ـ مَنْ أدركَ بكَثْرة صيَامٍ ولا صَلاة، وإنَّما أدركَ بسَخَاءِ الأنفسِ، وسَلامةِ الصُّدورِ، والنُّصْحِ للأمَّة ».

وقال لرجل:

« ما يُؤمِّنكَ أنْ تكونَ بارزتَ اللهَ بعَملٍ مَـقَتَكَ عليه، فأغلقَ دُونَكَ أبوابَ المغفرةِ وأنتَ تَضْحَكُ، كيفَ تَرى حَالَكَ ؟».

وحدَّث خالد بن خداش قال: قال الفضيل:

« ممَّنْ أنت ؟ ».

قلت: مُهَلبيٌّ.

قال:

« إنْ كنتَ رَجُـلاً صَـالحاً فـأنتَ الشَّـريفُ، وإنْ كنتَ رجلَ سُـوءٍ فأنتَ الوَضِيعُ كلَّ الوَضِيع ».

ثم قال: حدَّثنى منصور، عن مجاهد، قال:

« إنَّ المؤمنَ إذا ماتَ بَكَتْ عليهِ الأرضُ أربعينَ صَباحًا ».

وقال الفضيل:

« لئنْ أطلـبُ الدُّنيـا بِطَـبْلٍ ومِـزْمَـارٍ، أحَـبُّ إلىَّ مِنْ أنْ أَطْلُبَـهَـا بالعِبَادة».

وفى نهاية المطاف فى مجال الأخلاق والفضيل، نقول مع الشيخ أبى نعيم ـ صاحب «الحلية» ـ:

« كَلامُ الفُضَيلِ ومَـوَاعِظُه تَكْثُرُ، اقْتَصَرْنَا مِنْهَـا علَى مَا أَمْلَينا، نَفَعَنَا اللهُ وإيَّاكُمْ بِهَا ».

ونروى ما رواه محمد بن زنبور قال: سمعت رجلاً يقول:

رأيت الفضيل بن عياض فى المنام، فقلت له: أوصنى.

فقال:

« عَليكَ بأداءِ الفَرَائضِ، فإنِّى لَمْ أَرَ ـ قَطُّ ـ مِثْلَها ».

***